شعرية الرواية الفلسطينية غسان كنفاني أنموذجا،
د. عائشة مالكي، جامعة الطاهري محمد بشار - الجزائر.

مقدّمة:

إن التغيرات والصراعات السياسية والاجتماعية في فلسطين كانت المحرك الرئيس في إرساء دعائم الرواية الفلسطينية، حيث استطاع الروائيون أن يجدوا لها كيانا على الساحة العربية و الدولية ،ومن بينهم غسان كنفاني الذي انفرد بقوة الفكرة و الموقف برصده لأهم الأحداث الطارئة على الإنسان الفلسطيني المتمثلة في استئصاله وتهجيره من أرضه .

لقد تمكن من أن يرقى بالقضية الفلسطينية إلى مصاف القضايا الإنسانية بفعل التفرد في الكتابة الإبداعية المعتمدة على الرؤية الفنية التي تتجاوز المألوف لترسم سمتا نحو المقاومة بالقلم والمواقف الإنسانية وتدافع عن قيم العدالة و الحرية .

إن العمليّة الإبداعيّة عند الكاتب الفلسطينيّ " غسان كنفاني" هي وليدة تراكمات وصراعات داخليّة شهدها وعاشها، فكانت اللّبنة لتفجير الطّاقات الكامنة بداخله،معبّرا عن موقفه الفكريّ، مؤمنا بقضيّته الّتي حملها معه حتّى وهو في غربته، فجلّ كتابته كانت نابعة عن رأي، ورؤية، وردود أفعال أنتجها واقعه الأليم.(ففي الرّواية لا تواجه فضاءً خاماً بمعنى الكلمة وإنّما أجزاء وعناصر منظور إليها بطريقة خاصّة)[1] فقضيّة البحث عن المكان المفقود ومحاولة العودة إليه شكّلت جزءًا كبيرا من حياة الكاتب، واللّجوء إلى الكتابة كان المتنفّس الوحيد للتّعبير عن خلجاته بمنظوره الخاصّ، وتقديمه للمكان لم يكن (مجرد تشكيل للمادّة والأشياء في صورة تدرك لذاتها، وإنّما نجدها تظهر بجلاء في النّصّ من خلال زوايا النّظر والرّؤى لتعبّر عن انبثاق عالم كامل له حركيّته ومجاله الانفعاليّ.)[2] لقد حمل الكاتب على عاتقه مسؤوليّة فقْد المكان،لذلك حاول دائما اللّجوء إلى التّبشير بالثّورة بطريقة مباشرة وغير مباشرة،متطلّعاً إلى آفاق واسعة تمثّلت في البحث عن الحريّة برؤى جديدة واستخدام وسائل فنيّة خاصّة ليتمكّن من التّأثير على الآخرين وبثّ الوعي في أوساطهم.

---

[1] عبد الوهاب زعفران ، المكان في رسالة الغفران ، أشكاله ووظائفه ، دار صامد للنشر ، ط 2 ،صفاقس ، 1985 ، ص 20

[2] بوريس ، اوسبينسكي ، وجهة النظر على مستوى المكان و الزمان ترجمة سعيد الغانمي ، مجلة فصول ، القاهرة ، المجلد 15 العدد 4
سنة 1997 ص 256.

التزم غسّان كنفاني بالتّعبير عن التّجربة الّتي عاشها في فلسطين، وفي المنفى، واستطاع أن يترجم ذلك الهمّ بتفاصيله،همّ الإنسان الفلسطينيّ المقتلع من وطنه، المتشرّد والفقير، معاناة مليئة بالحزن والأسى، كتب عنها هذ االرّوائيّ من منطلق الواقع المرير، حيث صبغت أعمالها القصصيّة والرّوائية بالطّابع الواقعيّ (فجمع بين إبداع القول وتألق الفعل فانتهى شهيدا لفكره وخياراته الوطنيّة)[3].

لقد كانت الأرض محور روايات غسان كنفاني فقد تفانى في حبّها،و مات من أجلها، وهو في المنفى غريبا عن مكانه الأصليّ حيث (تتمثّل المقولات الأساسيّة التي تنهض عليها الرّواية الكنفانيّة في ستّ مصطلحات مفهوميّة هي: الوطن، والهويّة، والمنفى، والوعي القائم، والوعي الممكن، والرّؤية للعالم... فإنه ينهض في الرواية الكنفانية باحتواء هته المقولات ليعمل على تجسيدها فنيا ، على نحو يجليَ حضورها في جميع مكونات الرواية وعناصرها الفنية المختلفة ، ويضمّنها بالطّبع البنية المكانيّة الحاكمة)[4].

1- الاستيطان:

يعدّ الاستيطان من أخطر موضوعات الصّراع الصّهيونيّ الفلسطينيّ، من وجهة نظر الجغرافيّة، هذه الظّاهرة الّتي تدخل ضمن المشروع الصّهيونيّ في فلسطين، والّذي تبنّته الدّول الغربيّة قصد إيجاد مكان يجمع شمل اليهود المشتّتين في الدّول الغربيّة والشّرقيّة ليثبّتهم في فلسطين بعد التّيه.تمّت هذه العمليّة إثر مؤامرة بغية بين الغرب والصّهيونية منذ سنة 1948م ،سنة النّكبة الفلسطينيّة حيث أصبحت فلسطين في قبضة الصّهاينة اليهود بموجب اتفاقيّة بين الإنجليز واليهود، ذاك الوعد المشؤوم الّذي أعطى الحقّ لليهود، ومكّنهم من الاستيلاء على فلسطين كحقّ لهم مرتبط بمجموعة من الإيديولوجيّات الدّينيّة الّتي تتلخّص في أنّ فلسطين هي أرض الميعاد، ممّا (جعل اليهود يرفضون أيّ مقترح لقيام كيان لهم في أي مكان إلاّ فلسطين، والنّظر إليها كمكان يشدّهم إليها من أي مكان وزمان)[5].وفي سنة 1967م بدأت عمليّة الزّحف اليهوديّ نحو الأراضي المقدّسة تتّسع بجلب اليهود إليها، وتمكينهم من كسب الأراضي، والسّيطرة عليها دون منازع وعن طريق الغصب. وتُعرّف كلمة استيطان أنّها حالة استقرار الكائن الدّخيل في موطن جديد حيث تنتشر هذه الظّاهرة في الأراضي المحتلّة وضواحيها، وسياسة

[3] صبحية عودة زعرب ،جماليات السرد في الخطاب الروائي ،دار مجدلاوي ط1 ،2006 ، ص2.

[4] عبد الرحمن بسيسو، بنية المكان في الرواية الكنافنية، الجديد ، العدد 6 ، ص 14.

[5] فوزي سعيد الجدبة ، الاستيطان الإسرائيلي في شرقي القدس 1967 – 2009 ، دراسة في الجغرافيا السياسية ، مجلة جامعة الأقصى ، المجلد 15 العدد الثاني ، ص111.

الاستيطان هي التّوطّن في أرض محتلة، وقد جاء في المعجم الوسيط (وطن بالبلد اتّخذه محلاّ وسكنا يُقيم فيه ونفسه على الأمر وله حملها عليه.)[6] وانطلاقا من هذا التّعريف يمكننا القول إنّ الاستيطان هو اتخاذ الأرض وطنا، وتوطين الإنسان فيها،بإسكانه، وتثبيته فيها، وترسيخه بفعل فاعل، حيث يقوم المستوطن الوافد باستخدام أساليب القوة، والاضطّهاد لاقتلاع السّاكن الحقيقيّ من مكانه الّذي وُلد فيه وترعرع، واستبداله بالدّخيل،وتمكينه من الإقامة في محل سكناه.

فقد تمّت عمليّة الاستيطان بالإكراه،والتّهديد، وقوّة السّلاح والمجازر المتواليّة،لذلك لا يكون إلاّ في الأراضي المحتلّة، كما أنّه يرتبط بدوام الزّمن، وثبات الإقامة، وترسيخ العمران، ومكوث الإنسان مع توفير لوازم العيش، ومستلزمات الحياة. فإذا نظرنا إلى الاستيطان من النّاحيّة السّياسيّة وجدناه مرتبطا بكلمة الاستعمار، لأنّه نشأ معه، وعزّزته السّلطات المحتلّة للبلد المستعمَر، وشجعت المستوطنين على العمليّات الاستيطانيّة، وهذا الأمر عُرف منذ القدم عند الحضارات الغابرة قصد التّوسّع، ومدّ النّفوذ، والبحث عن الموارد الاقتصاديّة للبلد المستوطن، إلاّ أنّ هذه الظّاهرة استفحلت وانتشرت انتشارا سرطانيّا في القرنين التّاسع عشر والعشرين. وكان الدّافع الرّئيس البحث عن الأسواق، والمواد الأوليّة، وكذا نشر لثّقافة الغزاة الغربيّين. وبيد أنّ للاستيطان إيديولوجيّة كما هو الشّأن فيما تنتهجه إسرائيل في الأراضي الفلسطينيّة المؤمن بأسطورة أرض الميعاد، الّذي طبع بطابع دينيّ أسطوريّ عقديّ فهي (حرب عقيدة وصراع دين وثأر، وأحقاد قديمة دفينة، وقضيّة استرداد، واستيطان، واستعلاء، وسحق لأهل الدّيار، ثمّ هي أحلام مجنونة ينفخ فيها أحبار السّوء بوصايا الزّيف من التّوراة المحرّفة والتّلمود الحقود، فتصبح حقائق واقعة في غفلة الأغرار من قومنا وهم يجهلون أو يتجاهلون.)[7].

على أصداء الدّين المحرّف أصبح لليهود كيانا، وسلطانا، و دولة قائمة على نزعة عنصريّة استئصاليّة ترمي إلى تطهير فلسطين من العرب، وطمس هويتهم، وماضيهم العربيّ الإسلاميّ، وإقامة دولة خالصة لليهود، وذلك بممارسة الاحتلال الإسرائيليّ سياسة الاستيطان الإستراتيجيّة المكثّفة في الأراضي الفلسطينيّة، بطرد أصحابها الأصليّين، والدّفع بهم إلى أماكن اللّجوء.

---

[6] انظر معجم الوسيط ، ج4 ، مكتبة مشكاة الإسلامية ص 248.

[7] أحمد مصطفى فضيلة، مراجعة و تقديم عبد الستار فتح الله سعيد، ملحمة فلسطين ، دار الدعوة والنشر والتوزيع ، ص 94.\ بتصرّف

هكذا ضاعت فلسطين، وسلبت من أصحابها حيث،جعلتها (الدّولة اليهوديّة متكأً لها وحاجزا يفصل به الأقطار العربيّة في آسيا عن الأقطار العربيّة في إفريقيا، والّتي يريدها- دائما- تحت سيطرته واستغلاله)[8]. لم يتوقّف الأمر عند ذلك بل (مهّدت الصّهيونيّة لمشروعها الاستيطانيّ في فلسطين بمشروع بني إسرائيل في اللّغة والأدب قبل أن يبنيها في المكان،وعت خطورة الصّوت الثّقافيّ الفلسطينيّ فاستهدفته على الدّرجة نفسها من الإصرار والعنف الّتي تتعقّب فيها الأعمال العسكريّة.)[9]

وقعت فلسطين تحت وطأة الظّالم المستبدّ، فانعدم الأمن والاستقرار، وأصبح كل واحدا منهم خاضعا

(لعمليّة التّهديد والنّهب، تخطف منه البقيّة الباقيّة من إصراره على التّمسّك بالأرض أو الوطن أو

القضية)[10]. حرب أُقحم فيها الفلسطينيّ عنوةً (مزّقت النّسيج الاجتماعيّ والاقتصاديّ للشّعب الفلسطينيّ الّذي وجد نفسه مشرّدًا في العراء بعد أن استقر في بلاده طوال أربع ألاف وخمسمائة سنة ماضيّة وكان على هذا الشّعب المسلم أن يذبّح ويدمّر ليدفع ثمن حماقات الأوروبيّين تجاه اليهود)[11]هذه الأمور كلّها مجتمعة أثارت قريحة الكتّاب، وأسالت الكثير من الأقلام لتحكي حكاية فلسطين وما آلت إليه، والشاهد ما جاءت به روايات غسان كنفانيّ كشاهد عيان على معاناة الشّعب الفلسطينيّ جرّاء الاستيطان وسلب المكان، والمخاطر الّتي أضحت تهدّد المواطن الّذي (طُعِن في كرامته، وجُحِدت حقوقه في الملكيّة والحياة، فتنزاح عنه إنسانيّته، ويسقط عنه المجتمع المتمدن)[12].

أصبح الفرد إذاً مسلوب الإرادة،متعطّشاً للأمن والاستقرار، فلا حقّ له فيهما في وطنه، ممّا دفعه إلى اللّجوء قسراً، أو البقاء في مكانه مستسلماً لوضعه الرّاهن، أو منفياً إذا ما

---

[8] انظر نفس المرجع بتصرف ص 121 .

[9] نجمة خليل حبيب ،رؤى النفي و العودة في الرواية العربية الفلسطينية المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2014.

[10] عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية العربية ، الصورة و الدلالة ، دار محمد علي للنشر صفاقس تونس ط 1 ،2003 ،ص 168.

[11] محسن محمد صالح ،القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات بيروت طبعة مزيدة
ومنقحة 2012 ، ص65.

[12] عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربية ، الصورة و الدلالة ص 168.

عارض القوانين المفروضة عليه (فما عادت له إمكانيّة أن يكون مواطناً مدنيّاً مستقلاً بذاته، وما عاد للفضاء المدنيّ من وجود،فكلّ الفضاء عسكريّ، والنّاس كلّهم مقاتَلون، ومن تَعَدَ حدود المستوطِن فقد ظلم نفسه، واستحقّ سوء المصير، وليس له إلاّ أن يُقتلع من المكان سجنا أو نفيا إن لم يُقتل.)[13]وإمّا قسرا أو هروبا من مصير إلى مصير مجهول أو مستكينا مستسلما لوضعه الرّاهن،فلا يطالب بحقّه المشروع من ذوي السّلطان الّذين جعلوا من الفضاء جحيما حين نُزع عنه بُعده الإنسانيّ من جرّاء الحرب، إذ لا مكان لأصحاب المكان، ولا إرادة لاسترجاع المكان، وفي ظلّ هذه الظّروف بات الفرد يبحث عن ذاته (ففضل الحفاظ على بعض مقوّماته البشريّة مقابل خسارة المكان،وما حاجته إلى فضاء خلع عنه كلّ دلالاته ومعانيه، لا حياة فيه إلاّ للوحوش الضّاريّة)[14]

فإذا نظرت إلى الرّواية الكنفانيّة وجدت أنّ المكان هو مادّتها الأساس، فعليه بُنيت،لأنّه واقع معيش وحقيقيّ فرض نفسه على الرّوائيّ، فأضحى الغاية الّتي نهضت من أجلها الرّواية لتحكي مأساة المكان، وما آل إليه هذا المكان، ومعاناة أصحاب المكان.

إنّ روايات كنفاني محلّ دراستنا، ترجمت المعاناة الفلسطينيّة بدءًا من احتلال المكان، وتغييب هويته وتغيير معالمه إلى أن ساد الوعي بحتمية استرجاع المكان، فأكّدت على أنه لا مكان لمن يبحث عن حلول فردية ،و لا مكان لمن يرضى بالذل و المهانة، ولا مكان لمن يُغيّر المكان.

فالرّواية الكنفانيّة في مجملها، ومضامينها تصوّر حياة الشّعب الفلسطينيّ إثر النّكبة، وكيفيّة سقوط مكانه أمام عينيه،وفقده إيّاه دون نزاع، وخضوعه لوضعه،لا يصدّق ما حدث. فرواية رجال في الشّمس تصوّر تلك المعاناة (في السّنوات العشر الماضيّة لم تفعل شيئا سوى أن تنتظر.....ما تُراك كنت تنتظر؟.)[15]

أبو قيس الرّجل الشّيخ الّذي أراد التّوجه إلى الكويت، عاش عشر سنوات مخدَرا،لاجئا لا يمكنه استيعاب ما جرى، نزعت منه شجراته، وبيته، وقريته فوجد نفسه في أماكن اللّجوء،ينتظر الفرج الّذي ظلّ الفلسطينيّ ينتظره إمّا باستعادة مكانه، أو بإنقاذه من هذا الذّلّ الّذي أصابه،وذلك بطلب الموت كونه الوسيلة الأفضل، والنّعمة

[13] المرجع نفسه، ص 169.

[14] نفسه

[15] غسان كنفاني ، رواية رجال في الشمس ، المركز الثقافي ،الدار البيضاء ، ط 2 ،1980، ص18.

الأكبر، فالموت عنده أفضل من أن يُسلَب مكانه صوب عينيه، وهو مغلول اليدين لا حول له ولا قوّة (يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم ... لا شكّ أنّك ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود ... ليلة واحدة يا الله ! أتوجد نعمة إلهيّة أفضل من هذه ؟.)[16]

لا يمكن للفلسطينيّ في وضع أبي قيس إلاّ أنّ يتمنّى الموت بدل الذّلّ والمهانة، لقد تذكّر صديقا له، الأستاذ سليم الّذي مات قبل الحدث بيوم، فلم يشهد أهوال الحرب والاقتلاع من المكان، والفقر الّذي شهده أبو قيس (وفرت على نفسك الذّلّ والمسكنة، وانقدت شيخوختك من العار... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم ... ترى لو عشت لأغرقك الفقر كما أغرقني.)[17]

تمنّي الموت في ظروف كهذه يوحي بمرارة الوضع الّذي يعيشه الإنسان حين خسر السّقف الّذي يُؤويه ويحميه والّذي فرض عليه الزّحف الإسرائيليّ التّخلّي عنه، والاضطرار إلى الهجرة للبحث عن مكان بديل. ذاك ما فعله الرّجال الثّلاثة في رواية رجال في الشّمس، خضعوا لمشيئة الأقدار،وراحوا يبحثون عمّن يقلّهم إلى الكويت بلد النّفط، المكان الّذي ينقدهم من وضعهم الرّاهن، فيحاولون الهرب عبر الصّحراء دون وثائق على متن صهريج سيارة يقوده رجل خائن لبلده، همّه جمع المال فقط دون الاكتراث لمصائر الآخرين.

لعلّ الهروب كان الحلّ البديل بعد انعدام الأمن والاستقرار، فاجتمع الخوف مع اليأس ليجعلا الإنسان غير مدرك لما سيؤول إليه مصيره،فبدأ يفكّر في الحلول السّهلة الّتي تعيد له استقرارا وأمنا مؤقّتين في مكان غير مكانه، إذ لا يمكن أن نحسّ بطعم الأمان إلاّ في المكان الّذي نحبّ والّذي عشنا فيه أسعد اللّحظات فما (الإنسان غير المكان الّذي يحتلّ)[18] نشأ فيه و تنامت معه روابط الانتماء بفعل التّأثّر والتّأثير و التّماهي بين الشّخص ومكانه، فلا يمكن لأيّ قوّة من القوى أن تمحوه من الذّاكرة، حتّى لو استطاعت أن تمحو المكان وتغيّر معالمه، وتفرغه من أهله لتملأه بغيرهم.

تلك صورة أخرى تسوقها لنا رواية عائد إلى حيفا صورة اقتحام المكان وإفراغه من ذويه عنوة، صورة تلقي بظلالها على ذاكرة بطل الرّواية (سعيد س) حينما يعود إلى حيفا بعد انقطاع دام عشرين سنة. فيعيش تفاصيل الحدث المرعب سنة 48، (صباح

---

[16] المرجع نفسه ص 15.

[17] المرجع نفسه ، ن ص .

[18] عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية الصورة الدلالة ، ص 173 .

الأربعاء 21 نيسان عام 1948، كانت حيفا مدينة لا تتوقّع شيئا رغم أنّها كانت محكومة بتوتّر غامض، وفجأة جاء القصف من الشّرق، من تلال الكرمل العاليّة، ومضت قذائف المورتر تطير عبر وسط المدينة لتصبّ في الأحياء العربيّة، وانقلبت شوارع حيفا إلى فوضى، واكتسح الرّعب المدينة الّتي أغلقت أبواب حوانيتها ونوافذ بيوتها.)[19] بدأت عمليّة السّطو على المكان بالقصف، فعّم الرّعب واستحالت عودة الّذين كانوا آنذاك خارج مساكنهم أن يعودوا، وظلّت قوات الجيش الإسرائيليّ تدفع النّاس دفعا نحو السّاحل.

(شعر سعيد أنّه يندفع إلى دونما اتّجاه، إنّ الأزقّة المغلقة بالمتاريس، أو الرّصاص، أو بالجنود إنّما تدفعه دون أن يحسّ نحو اتجاه وحيد، وفي كلّ مرّة كان يحاول العودة إلى وجهته الرّئيسيّة منتقيّا أحد الأزقة...كان يجد نفسه كأنّما بقوّة غير مرئيّة تجعله يرتدّ إلى طريق واحد، ذلك هو المتّجه نحو الساحل.)[20]

ذلك ما كانت تصبو إليه السّلطات المستوطنة، أن تحشد النّاس حشدا إلى السّاحل حيث السّفن

الّتي تقلَ النّاس إلى أماكن اللّجوء قصد إفراغ المكان من أصحابه الأصليّين، وتعميره بمن هم أجدر به - حسب المعتقد الصّهيونيّ - وبعد ساعات من الرّكض في شوارع المدينة بات " سعيد س " متيقّنا أنّه مدفوع نحو الميناء حيث أغلقت الأزقّة المؤدّية إلى الشّارع الرّئيس المؤدّي إلى بيته الّذي ترك فيه زوجته صفيّة وابنه الصّغير ذو الخمسة أشهر (كان النّاس يتدفّقون من الشّوارع الفرعيّة نحو ذلك الشّارع الرّئيس المتّجه إلى الميناء، رجالا ونساء وأطفالا .... وضاع بين أمواج البشر المتدفّقة، وفقد القدرة على التّحكّم بخطواته. إنّه ما زال يذكر كيف أنّه كان يتّجه نحو البحر وكأنّه محمول وسط الزّحام.... وفي رأسه كان ثمّة صورة واحدة...زوجته صفيّة وابنه خلدون.)[21]

استبطأت الزّوجة صفيّة زوجها سعيد، فخرجت من منزلها تاركة ابنها الصّغير للبحث عن زوجها بخطوات عشوائيّة إذ تجد نفسها مدفوعة مع الناس وكان مصيرها كمصيرهم، فوجد الزّوجان نفسيهما على متن الزّوارق الّتي تنقل النّاس من حيفا إلى أماكن اللّجوء، حينها تيقّنا أنّه لا مجال للعودة إلى المكان،البيت الّذي تركا فيه فلذة كبدهما،حيث لا مجال للإحساس بأيّ شيء (لم يكونا بعد قادرين على الإحساس بأيّ

[19] غسان كنفاني ، الروايات ، المجلد الأول دار الطليعة للطباعة والنشر ،ط1،نوفمبر 1972 ،ص 346 .

[20] المرجع نفسه، ص 352 .

[21] المرجع السابق، ن ص

شيء وفقط حين عوّمهما الرّذاذ المتطاير من تحت خشب المجاديف، ونظرا إلى الشّاطئ حيث كانت حيفا تغيّم وراء غبش المساء وغبش الدّموع ...)[22]

هكذا ضاعت حيفا وضاعت المدن الأخرى، وحوّلت إلى مكان عسكريّ (فالآلة العسكريّة تزحف لتحوّل كلّ ما تحتلّه من المكان المدنيّ إلى مكان عسكريّ وغالبا ما تقتضي منها عمليّة التّحويل طمس خصائص المكان المحتلّ... وإفراغه من السّكان إن أمكن أو على الأقل إعادة تنظيم حضورهم.)[23]

إنّ البقيّة من النّاس الّذين تمسّكوا بأماكنهم، وتشبّثوا بها ما كان عليهم إلاّ أن يخضعوا للقوانين الصّارمة الجديدة الّتي سنّتها الدّولة الجديدة، مثلهم مثل الّذي هاجر وترك أملاكه، كلاهما يشعر بالغربة ،فالأوّل غربته مكانيّة نابعة عن بعد المكان، والثّانيّ غربته نفسيّة بعد منعه من الحركة بحريّة في مكانه، فتفشَت ظاهرة الاغتراب بنوعيه المكاني و النفسي.

بات الهمّ الوحيد هو البحث عن الذّات الّتي تاهت عن نفسها في ظلّ السّيطرة، وأصبحت تغمرها روح الأنانيّة بالبحث عن الخلاص الفرديّ بعد اندثار كلّ مقوّمات الحياة ومصدر الرّزق. فبدا الإنسان منشغلاً عن المكان، منهمكاً في مشاكله الشّخصيّة الّتي طرأت عليه دون سابق إنذار، فظلّ المكان في انتظار انبعاث روح الإرادة والوعي بالمكان المسلوب .

2- تغيير معالم المكان:

لابدّ أنّ كلّ مكان مستلب سيخضع إلى التّغيير في معالمه، ومن مظاهر التّغيير تحطيم المكان

وتحويله إلى ركام بفعل الدَبَابات والأسلحة المدمّرة، واقتلاع الأشجار الّتي تعدَ رمزا من رموز الهويّة، أو استبدال مكان بمكان آخر، وهذا ما عمل عليه الغزو الصّهيونيّ، استلاب المكان، وتغيير معالمه سواء على المستوى الخارجيّ كاستبدال (أماكن ثقافيّة بأماكن عسكريّة كما الشّأن في تغيير موسكوبيّة الّتي كانت للنّدوات الأدبيّة إلى مركز للشّرطة الإسرائيليّة في مدينة النّاصرة.)[24] أو على مستوى المنازل الّتي طُرد منها أهلها، وصارت ملكا لليهود المستوطنين الّذين قادوا حرباً (لا رحمة فيها ،بدأت بنزع الأسماء العربيّة

[22] نفسه ، ص 356.

[23] عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية العربية ، الصورة و الدلالة ،مرجع سابق، ص 173 .

[24] إدوا د سعيد ، خارج المكان، ترجمة فؤاد طرابلسي ، دار الأدب، بيروت ،ط 1 عام 2006 ، ص 153 بتصرف .

الفلسطينيّة عن المدن والقرى الفلسطينيّة ووصلت إلى ذروتها بمنع الفلسطينيّين من الحزن والحداد في يوم نكبتهم... إنّ إسرائيل تقود معركة محو الذّاكرة الفلسطينيّة، لأنّ محو الذّاكرة جزء من مشروع محو الوجود الّذي اتّخذ عام 1948 شكل التّطهير العرقيّ.)[25]، وقد تجلّت هذه الظّاهرة في الرّواية الكنفانيّة حيث وجد " سعيد س " بطل رواية عائد إلى حيفا نفسه فاقدا لمنزله الّذي غاب عنه 20 سنة فلم يتمكّن من العودة إليه بسبب الجدار الفاصل الّذي أقامه الإسرائيليّون لمنع الفلسطينّيين المطرودين عنوة من العودة إلى ديارهم. خلال هذه السّنوات الطّويلة تغيّر المكان بما فيه من الأشياء الّتي بقيت في ذاكرة البطل.

عاد سعيد وزوجته بعد غياب طويل إلى مدينة حيفا ليلقيا نظرة على بيتهما، وما آل إليه هو وابنهما الّذي تركاه صغيرا يبلغ خمسة أشهر فقط. (وفجأة أطلّ المنزل، المنزل ذاته ذلك الّذي عاش فيه، ثمّ عيّشه في ذاكرته طويلا.)[26] هاهو سعيد يصل إلى بيته، وتبدأ أوّل ملامح التّغيير في المكان، تتبدّى لسعيد عندما وضع أصبعه على الجرس قائلا لصفيّة بصوت خافت:(غيّروا الجرس، وسكت قليلا ثمّ تابع والاسم طبعا)[27] بيت سعيد أضحى ملكا لليهوديّة ميريام وزوجها إفرات كوشن بعد سنة من غيابه وزوجته،حتّى الابن الّذي تركاه أصبح ابن اليهوديّين بالتّبنّي، طُلب منهما استلامه مع البيت (وكان ذلك اليوم يوم الخميس الثّلاثين من نيسان 1948 عندما دخل إفرات كوشن وزوجته ميريام برفقته موظف من الوكالة اليهوديّة له وجه يشبه الدّجاجة، ويحمل طفلا عمره خمسة شهور، إلى بيت سعيد س في الحليصة.)[28] تمكّن اليهوديّان من الاستيلاء على البيت والطّفل معا من الوكالة اليهوديّة، وبفعل الزّمن تغيّرت هويّة المكان والإنسان، فأضحى البيت بيتا إسرائيليّا والابن إسرائيليّا كذلك، فلم يعد هناك من شيء يمكن لسعيد استرداده، كلّ شيء ضاع مع الزّمن، فكلّ الأشياء الّتي ظلّت في ذاكرة سعيد وزوجته، شعر بأنّها تنكره، ولم يعد له الحقّ في ملامستها، لأنّها ليست أشياءه الّتي تركها منذ عشرين عاما (في غرفة الجلوس استطاع أن يرى أنّ مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطّاقم الّذي كان له، أمّا المقاعد الثّلاثة الأخرى فقد كانت جديدة، وبدت هناك فضّة غير متّسقة مع الأثاث... وفي الوسط كانت الطّاولة المرصّعة بالصّدف هي نفسها

[25] إلياس خوري ، على الأقل الحجاب و النكبة ، الحوار المتمدن ، عدد 2731 ، 7-8-2009، ص2.

[26] غسان كنفاني ، الروايات ، مصدر سابق ،ص 362.

[27] نفسه ص 363.

[28] نفسه ص 381.

وإن كان لونها قد صار باهتنا، وفوقها استبدلت المزهريّة الزّجاجيّة بأخرى مصنوعة من الخشب... وحين استدار رأى أنّ السّتائر قد تغيّرت.)[29] يؤكّد غسّان كنفانيّ بأنّ المكان إذا تخلّيت عنه ينكرك، هذا الشّعور بات ينتاب سعيدا حين أدرك أنّه كان عليه ألاّ يترك مكانه (كان علينا ألاّ نترك شيئا خلدون،والمنزل، وحيفا! ألم ينتابك ذلك الشّعور الرّهيب الّذي انتابني وأنا أسوق سيّارتي في شوارع حيفا؟ كنت أشعر أنّي أعرفها، و أنّها تنكرني، وجاءني الشّعور ذاته، و أنا في البيت هنا. هذا بيتنا! هل تتصوّرين ذلك؟ إنّه يُنكرنا.)[30] إذا تمعنّا في الرّواية الفلسطينيّة نجدها لا تخلو من الأماكن الّتي تحاول السّلطات الصّهيونيّة تغييبها عن الذّاكرة وتغيير ملامحها بما سعى لتحقيقه وهو نسف ذاكرة المكان وتغيير هويّته وهويّة أصحابه.

3- تغييب الهويّة:

تتشكّل هويّة المكان والإنسان بفعل التّماهي الّذي يقوم بينهما، وأيّ تغيير يحدث في المكان يمكن بموجبه أن يُحدِث شرخا في علاقة الإنسان بالمكان، فانتماء الإنسان لمكانه خاضع لمجموعة مرتكزات،أهمّها الأمن، والاستقرار، والعادات، والتّقاليد الّتي تعبّر عن ثقافة الإنسان النّاجمة عن تفاعله مع المكان،فأيّ مساس بها يخلّ توازنه فتمحى هويّته بعدّها تعبيراً على مصداقيّة انتمائه للمكان،(فالهويّة ليست كيانا يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، إنّها حقيقة تولد، وتنمو، وتتكوّن، وتتغاير، وتشيخ، وتعاني من الأزمات الوجوديّة والاستلاب)[31].

فالمخزون الثّقافي الذي يتوالد بتعلّق الإنسان بمكانه يتنامى شيئا فشيئا عبر الزّمن ليصبح جزءًا لا يتجزأ من منظومة التّكوين الثّقافيّ والفكريّ لديه، فلا يمكن بأيّ شكل من الأشكال المساس بها، و إلاّ كان ذلك طمسا لهويّة الإنسان، وهويّة المكان الّذي يعيش فيه (فحياة الإنسان هي خلاصة لكلّ ما يحيط به في بيئته ... لذلك نجد عددا كبيرا من الكتّاب يحاولون من خلال المكان التّعبير عن تمسّكهم بهويّتهم لاسيّما إذا كانوا يعانون

---

[29] نفسه ص 365.

[30] نفسه ص 385.

[31] أليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة دار النشر الفرنسية ،طبعة عربية أولى، 1993، تنفيد دار الوسيم للخدمات الطباعية دمشق ص7.

أصلا بسبب تلك الهويّة،كأن يكونوا مقيمين بصورة قسريّة أو اختياريّة خارج المكان الّذي عرفوه، وألفوه، وأحبوه.)[32].

هؤلاء الكتّاب تراهم دائمي الحنين إلى أماكنهم، يصوَرونها فيما يكتبون، ويتلذَذون لذكرها، وذكراها، نذكر من بين هؤلاء الكتّاب إدوارد سعيد الّذي ترك مكان ولادته مبكرا، وعاش عمره كلّه خارج وطنه الّذي أحبّه، فيكتب سيرته الذّاتيّة الموسومة بـ "خارج المكان" ليعبّر عن حنينه لوطنه قائلا:(... كانت الجغرافيّة في مركز ذكرياتي عن تلك السّنوات الأولى خصوصا جغرافيّة الارتحال من مغادرة، ووصول، ووداع،ومنفى، وشوق، وحنين إلى الوطن، والانتماء،ناهيك عن السّفر ذاته، فكلّ واحد من الأمكنة الّتي عشت فيها (...) يملك شبكة كثيفة، ومركبة من العناصر الجاذبة، شكّلت جزءًا عضوياً من عمليّة نموّي واكتسابي هويّتي، وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين.)[33]

وإذا ما نظرنا إلى الرّواية الفلسطينيّة نجدها لا تخلو من ذكر الأماكن الّتي حاولت القوّات الصّهيونيّة تغيّبها عن الذّاكرة وتغيير ملامحها، وذلك ما هو إلاّ طمس لهويتها وهويّة قاطنيها الّذين وجدوا أنفسهم أشلاء متناثرة هنا وهناك في أماكن غير أماكنهم الّتي ألفوها وعاشوا فيها عمرا كاملا وتجذّروا وعرفوا فيها معنى الوجود (لأنّ الانتصاب في المكان وتعميره هما الدّليل على الوجود.)[34] فالمكان هو قبل كلّ شيء، المكان الّذي يقبع في دواخلنا، ويمدّنا بالطّمأنينة والقوّة ما دمنا نحافظ عليه، ونتمسّك به،إذ أنّ المنزل (هو الّذي يهب الإنسان قوّة الجذور)[35] فإذا ما اقتلعت هته الجذور أصبح الإنسان كائنا مهدّدا بالانهيار كالبناء الّذي تنزع دعائمه، ومرتكزاته لينهار ويصبح ركاما.

هكذا هو حال الفلسطينيّ اليوم، سُرق مكانه، ونهبت أحلامه فصار يبكي على الأطلال،لا يمكنه استيعاب ما أصابه من فقد للبيت، والقرية،والشّجرة،وأهمّ مقوّمات العيش. هذا المشهد تصوّره لنا رواية" رجال في الشّمس" متحدّثة على ما أصاب أبي قيس أحد أبطالها (لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدّق أنّك فقدت شجراتك، وبيتك، وشبابك، وقريتك كلّها.)[36] بقي الفلسطينيّ بعد نكبة فلسطين مذهولا،

---

[32] خليل ابراهيم ، بنية النص الروائي ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ش. م. ل ، ط1 2010 ، ص141.

[33] ادوارد سعيد ،خارج المكان ، مرجع سابق ،ص 22.

[34] عبد الصمد زايد ،المكان في الرواية العربية ، الصورة والدلالة ، مرجع سابق ص 264.

[35] غاسطون باشلار ، جماليات المكان ، مرجع سابق ص 32.

[36] غسان كنفاني ، رجال في الشمس ، مصدر سابق ،ص 18.

ومصابا بالعجز أمام القتل، والنّهب، والدّمار، فلم يكن بوسعه فعل شيء إلاّ أن ينتظر ليرى مكانا غير مكانه، ويستسلم لوضعه حتّى يأتي الفرج، هذا الأخير الّذي مرّت عليه عشر سنوات، ولم يأت، ظلّ هذا الشّيخ ينتظره، وهو يتجرّع الذّلّ والمهانة مع عائلته في بيت صغير استعاره من رجل كريم (ماذا تراك كنت تنتظر؟ أن تثقب الثّورة سقف بيتك...بيتك؟ إنّه ليس بيتك.. رجل كريم قال لك: اسكن هنا، هذا كلّ شيء، وبعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة، فرفعت أكياسا مرقعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد.)[37] إنّ الشّعور باليأس، والغربة والحرمان كان كفيلا بجعل الرّجل الشّيخ يفكّر في البحث عن حلّ يخرجه وعائلته الصّغيرة من مرارة اللّجوء، وفقدان الهويّة الّتي شاء العدوّ إلاّ أن يطمسها، وأخيرا يقرّر أبو قيس أن يتوّجه إلى الكويت ليبحث عن عمل يسترجع به مكانه وشجراته بعد إقناع زوجته باسترجاع المفقود (قد نشتري عرق زيتون أو اثنين ....وربما نبني غرفة في مكان ما...)[38] كانت هي الدّوافع الّتي جعلت الرّجل الشّيخ يتحدَى واقعه، ويقبل بالمجازفة بحياته وحياة أسرته ، والسّفر مع أصدقائه سعد، وأسعد نحو الكويت عبر صحراء قاحلة قاتلة ،إلى مصير مجهول قصد البحث عن هويّة ضائعة وعن مكان ضائع.

إنّ حلم الخلاص الفرديّ لدى تلك الشّخصيّات الثّلاث محكوم بالفشل ومحاصر داخل أسوار غربة الّذات، فاسترجاع الوطن والبيت لا يكون بالابتعاد عنه، وإنّما بالدّفاع عنه، وهذا ما كان غسّان كنفانيّ يحاول الإشارة إليه دائما في رواياته، فالمقاومة هي السّبيل إلى الخلاص،تلك الصرخة الّتي أطلقها احتجاجا على الموت المجانيّ للأبطال الثّلاث " لماذا لم تدقّوا جدران الخزّان " خير دليل على الدّعوة العلنيّة للثّورة.

وعلى صعيد آخر نلتقي مع غسّان كنفانيّ في رواية " ما تبقّى لكم " بشخصيّتي حامد ومريم، هما الآخران فقدا الأب والأمّ والبيت، فوجدا نفسيهما في أماكن اللّجوء كغيرهم من الفلسطينيّين. ومن منظور آخر يصوّر الرّوائيّ غسّان كنفانيّ هاتين الشّخصيّتين حامد وأخته مريم اللّتين تجاوزتا الإحباط الّذي شهدناه لدى شخصيّات " رجال في الشّمس " إذ نجد حامدا قد خرج من الأزمة الوطنيّة رجلا قويّا وصلبا رغم صغر سنّه الّذي كان حينها عشر سنوات، استطاع حامد أن يتجاوز الأزمة السّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة المتمثّلة في تفكّك الأسرة،فكبر على مسؤوليّته تجاه وطنه

[37] نفسه : ن ص .

[38] نفسه ص 20.

المسلوب، وتجاه أخته كجزء لا ينفصل عنه، فوجد نفسه بمثابة الأب والأمّ والأخ لها. مريم الّتي منحها حياته ومستقبله تطعنه في شرفه، إذ تلقي بنفسها بين يدي رجل نذل خائن

لوطنه، هكذا كان يسمّيه، وتحمل منه سفاحا،من هنا كانت الهاويّة الّتي ألقت به في جبّ القلق والتّمزّق والضّياع النّفسيّ.

يحمل حامد ذلّه معه، ذلّ هويّته المسلوبة، وذلّ أخته المخدوعة، فيتوجّه نحو الطّهر والصّفاء المتمثّلين في الأمّ والأرض،مع علمه أنّ الصّحراء الّتي سيعبرها للبحث عن أمّه تبتلع الكثير إلاّ أنّه يختار حبّها (ليس بمقدوري أن أكرهك ولكن هل سأحبّك؟ أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة، إنّي أختار حبّك إنّي مجبر على اختيار حبّك، ليس ثمّة ما تبقى غيرك.)[39] إذًا إلى الصّحراء ينتهي بالبطل حامد المطاف، الأرض الّتي أحبّها والّتي يستمدّ منها قوته الّتي تعيد له وعيه بانتمائه إليها، لم يتبق له سوى هته الصّحراء الشّاسعة بعتمتها وقفارها، ليستعيد فيها ذاته، أرض محفوفة بالمكاره، والمجهول،إنّها (أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول.)[40]على كلّ حال فالصّحراء هي المخلوق الوحيد الّذي لم يخذل حامد، فيها استعاد وعيه، وطهر نفسه، واستعاد كرامته بقتل الجنديّ الإسرائيليّ.في الصّحراء فقط (تنتفي الحواجز والحدود بين الذّات والمكان، وتستوي لهما دواعي الانصهار والتّوحّد.)[41] وهذا يحيلنا إلى أنّ الأرض تتمسّك بمن يتمسّك بها، وتخلص لمن يخلص لها، و تتماهى معه ليصبحا كائنا واحدا .

خاتمة:

إنّ المكان المستلب في الرواية الفلسطينية هو حالة عفوية مقصودة تعبر عن ظاهرة نفسية و عقلانية تعيش في وعي الإنسان الفلسطيني ، و هي بصورة جلية تعتمد على فكرة ثورية لدى الكاتب الفلسطينيو تعالج ظاهرة المكان و دلالتها النفسية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية على المجتمع كظاهرة عامة ، وعلى الفرد كظاهرة خاصة و هي

[39] غسان كنفاني ،الروايات ، ص 170.

[40] نفسه، ص 179-180.

[41] عبد الصمد زايد ، المكان في الرواية العربية ، ص 68.

بالتأكيد جزء من الظاهرة العامة و تتحمل بجدارة تأثير الاستلاب والغربة و التشرد على الظاهرة المجتمعية .

فالمكان من أهم العناصر الروائية فعالية في النص الروائي ، إذ يتحول من مجرد خلفية تقع عليها الأحداث إلى عنصر تشكيلي من عناصر العمل الروائي وهو شرط من شروطه يكمل دور الزمن ويحدد دلالة الرواية ، كما أن له أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث ، إذ يتحول في الأعمال المتميزة إلى فضاء يحتوي كل العناصر الروائية بما فيها من حوادث وشخصيات وما بينها من علاقات ويمنحها المناخ الذي تفعل فيه و تعبر عن وجهة نظرها، ويكون هو نفسه المساعد على تطوير الرواية و الحامل لرؤية البطل و الممثل لمنظور المؤلف.